الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

الإنسان ذلك المجهول

تأليف الدكتور ألكسيس

تقديم : رمضان لاوند

لم يحدث في تاريخ الكتاب المعاصر لجيل الحرب العالمية الثانية أن الرأي العام المثقف والدوائر العلمية ذات العلاقة ، قد تأثرت بكتاب معين بين مؤيد ومعارض ، كما تأثرت بكتاب الدكتور ألكسيس كاريل الذي قدمه بعنوان " الإنسان ذلك المجهول " .

فمن هو الدكتور المؤلف لهذا الكتاب أولاً ؟ ولماذا كانت الشهرة الخاصة لهذا الكتاب ثانياً ؟ وما هي المواقف الرئيسة التي تميزت بها مادة الكتاب ثالثاً ؟ وهل استطاع المؤلف أن يسلط بمادته العلمية في هذا الكتاب ضوءاً على الحقائق النهائية التي يسعى إليها الإنسان منذ عرف نعمة القراءة وقيمة تقليب النظر في خلق السموات والأرض والحياة ؟ .

الإجابة عن هذه التساؤلات تفرض علينا أن نقسم موضوع هذه المقالة إلى أربعة أقسام.

من هو ألكسيس كاريل؟

الدكتور ألكسيس كاريل من مواليد قرية قريبة من مدينة ليون الفرنسية لعام ١٨٧٣. تابع مراحل دراسته كلها حتى بلغ نهاية المرحلة الجامعية في هذه المدينة وحصل على إجازة الطب من جامعتها.

ثم انتقل إلى مدينة ديجون الفرنسية أيضاً فحصل من جامعتها على إجازة في العلوم.

وبعد سنوات انتقل الدكتور كاريل إلى الولايات المتحدة حيث شارك في نشاط العلماء في معهد " روكفر للأبحاث العلمية في نيويورك ". ومنح عام ١٩١٢ م جائزة نوبل تقديراً لأبحاثه الطبية الفريدة. وفي عام ١٩٣٩ وكان قد أمضى ثلاثين عاما في معهد " روكفر " اعتزل العمل الوظيفي الرسمي وانصرف إلى تعميق أبحاثه المتعلقة " بالقلب الميكانيكي " الذي يقال أن في إمكانه توفير أسباب الحياة للمريض بدلاً من القلب الأصلي لمدة غير محدودة.

في أثناء الحرب العالمية الثانية اشترك مع أطباء آخرين في القيام بمهمات خاصة عهدت إليه من قبل وزارة الصحة في بلاده . وتوفي عام ١٩٤٤ عن عمر ناهز الواحدة والسبعين من أعوام قضى أكثرها عاملاً من أجل المعرفة.

وقبيل وفاته بسنوات أصدر كتابه " الإنسان ذلك المجهول " فأحدث بما ضمنه من النظرات النفاذة والأصيلة ضجة واسعة في الرأي العام المثقف وفي عدد من الدوائر العلمية ذات العلاقة .

أسباب شهرة الكتاب

يبدو لنا أن شهرة كتاب " الإنسان ذلك المجهول " تعود أولاً إلى طبيعة الموضوع نفسه . فالملاحظ أن منجزات العلم الغربي منذ بداية النهضة بعد القرون الوسطى حتى اليوم هي منجزات تتصل بالجانب المادي البحت بسبب من سهولة البحث فيه وملاحظة وقائعه واكتشاف القوانين والسنن الثابتة التي تنظم وجوده . من أجل ذلك ابتعد العلم الغربي عن الأبحاث البيولوجية في بداية الأمر واهتم بالأبعاد المادية الجامدة للموجودات . وبعد أن حقق العلم الحديث قفزات واسعة في ميدان الفيزياء والكيمياء المعدنية وما يتصل بهما من موضوعات وحقق أكواماً من الاختراعات التكتيكية المدهشة وجد نفسه أمام محميات " الحياة والأحياء "، فاضطر لتعبئة جهوده من أجل التعرف إلى أسرارهم واكتشاف القوانين التي تنتظم بها تحركاتهم . ولما كان الانسان هو في طليعة الكائنات الحية من حيث الأهمية ومن أكثرها تعقيداً وإثارة للاهتمام فقد جاء كتاب " الإنسان ذلك المجهول " بمثابة الخطوة الكبرى التي حققتها موجة البحوث الإنسانية المعاصرة.

وتعود شهرة الكتاب ثانياً إلى ما يتميز به من الشمول . فالواقع أن المؤلف لم يصدر فيما حققه وناقشه عن تجاربه الخاصة وحسب بل لجأ إلى مجموعة الأبحاث والدراسات التي قام بها زملاؤه في المعهد المذكور وهم فئات متخصصة في جملة من العلوم المادية والإنسانية . وقد جاء في مقدمة المؤلف بهذا المعنى ما يلي : " من حسن حظي أن سمح لي مركزي بأن أدرس دون بذل أي مجهود أو الطمع في أي ثناء – ظواهر الحياة في تعقيدها المخيف ... فلاحظت كل وجه من وجوه النشاط البشري بصفة عملية. كما أنني عليم بكل ما يكتنف الفقير والغني ، الصحيح والسقيم ، المتعلم والجاهل ، ضعيف العقل والمجنون ، الذكي والمجرم إلخ " ثم يقول : " لقد ألقت بي الظروف في طريق الفلاسفة والفنانين والشعراء والعلماء ، والعباقرة والقديسين ... كما درست في الوقت نفسه التركيب الميكانيكي الغائر في أعماق الأنسجة وتلافيف المخ الذي هو في الحقيقة الأساس العميق

للظواهر العضوية والعقلية ". وأما عن نشاطه في المعهد بخاصة فيقول : " هناك أفكر في ظواهر الحياة حينما يحللها الخبراء الذين لا يبارون أمثال ملتزر وجاك لويب وبخيوشي وكثيرون غيرهم ألخ " [١] .

ولو أتيحت لنا فرصة لنقل كل ما ذكره عن المعلومات التي توفرت بفضل جهوده وجهود عشرات من المتخصصين في مختلف فروع المعرفة لاتضحت لنا ظاهرة الشمول التي تميز بها كتابه . فهو إذن لم يعتمد الأبحاث المخبرية وحسب في هذا الكتاب بل لجأ إلى كل الدراسات الانسانية من تاريخ وعلم نفس وتربية واجتماع وأخلاق ودين وفلسفة ألخ ...

أما السبب الثالث لشهرة كتاب " الإنسان ذلك المجهول " فهو في أنه لم يرتفع في تعقيده إلى مستوى الخبراء المتخصصين ولم يهبط في تبسيطه إلى تعميمات السطحية الإبتدائية . لقد جعل من موضوعاته مادة لا يرفضها المتخصص بل لعلها تثير اهتمامه ولا تستعصي على القارىء المثقف العادي بحيث يعجز عن متابعة قراءته . ويقول في تبرير المحاولة التي قام بها لتأليف الكتاب " إنني عالم تماما بالصعوبات التي تقترن بالإقدام على هذا العمل ... ومع ذلك فقد حاولت أن أودع جميع المعلومات التي تتصل بالإنسان صفحات كتاب صغير. إنني لن أرضي الاخصائيين لأنهم يعرفون أكثر مما أعرف ولن أسر الجمهور لأن هذا الكتاب يشتمل على كثير من التفصيلات الفنية ومع ذلك فإنه لم يكن لي مفر من تلخيص معلومات عدة علوم ." [٢]

وأما السبب الرابع لشهرة الكتاب فيعود إلى جدة الموضوع وطبيعته اللتين فرضتا نفسيهما أمام الإحتمالات الشديدة للتدهور والانحطاط في حضارة اليوم.

المؤلف يعلن في مقدمة الكتاب قوله " لقد فتنهم " أي ناس اليوم " جمال علوم الجماد ... إنهم لم يدركوا أن أجسامهم ومشاعرهم تتعرض للقوانين الطبيعية وهي قوانين أكثر غموضاً ، وإن كانت تتساوى في الصلابة ، مع قوانين الدنيا ... كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم ." ثم يقول بعد قليل " إن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا فإذا انحط وتدهور ، فإن جمال الحضارة ، بل حتى عظمة الدنيا المادية ، لن تلبث أن تزول وتتلاشى ." [٣]

---

١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٠.

٢)الإنسان ذلك المجهول ص ١٠

٣)الإنسان ذلك المجهول ص ١١.

مادة الكتاب

وهنا نجد أنفسنا أمام السؤال الثالث الذي طرحناه مع غيره في بداية هذا الحديث : " ما هي المواقف الرئيسة التي تميزت بها مادة الكتاب ؟".

من الممكن أن نجيب عن هذا السؤال بكلمة واحدة مقتبسة من العنوان نفسه . إن مادة الكتاب التي تميزه من سواه هي "الإنسان " . ومما يؤكد هذه الحقيقة العناوين التي قدمت بها الفصول الثمانية لكتابنا هذا . إنها كلها تدور حول الإنسان نفسه " الحاجة إلى معرفة الإنسان معرفة أفضل – علم الانسان – الجسم ووجوه النشاط الفسيولوجي – النشاط العقلي – الزمن الداخلي – الوظائف التنسيقية – الفرد – إعادة صياغة الانسان ".

ولما كانت هذه العناوين اطارات واسعة لجملة كبيرة من المعاني والحقائق التي تتجاوز الآلاف عداً فإن أي محاولة لتلخيص الكتاب تبقى محاولة عاجزة عن استيعاب الحقائق الرئيسة فيه ولكن هذا لا يمنعنا من تقديم صورة تقريبية لما يحتويه لا لتغني القارىء عن متابعة الحقائق في صفحاته بل لتكون بمثابة الحافز الذي يدفع القارىء إلى البحث عنه والتأمل فيما ورد فيه .

معرفة أفضل بالإنسان

المؤلف الدكتور ألكسيس كاريل يؤكد الحقيقة المتفق عليها وهي أن علوم الطبيعة الجامدة قد سبقت علم الحياة بأشواط كثيرة مما تسبب بجهلنا الفاضح بحقيقة تكويننا الجسدي والنفسي . وهو يرى أن المنجزات الضخمة التي حققها الانسان في الفيزياء والكيمياء والتي بلغ بها قمة التكنولوجيا الحديثة إن في ميدان غزو الفضاء أو تحليل معادن الأرض وفلذاتها المختلفة وصنع مركبات جديدة منها أو في ميدان العقول والآلات الحاسبة ، إنه يرى أن السبب في إرتفاع الأكوام العظيمة من المعلومات المادية فقط مع جهلنا التام نسبيا بحقيقتنا الانسانية راجع إلى طريقة وجود أسلافنا وإلى تعقد التركيب الانساني من الناحيتين الجسدية والعقلية .

ثم يطرح المؤلف عدداً غير قليل من الأسئلة الأساسية المتعلقة بالانسان ويقول أنها لم تجد الاجابات الصحيحة لها في الدوائر العلمية المختصة من مثل :

١) كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟

٢) ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟

٣) كيف تقرر الجينس (١) الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟

٤) ما هي طبيعة العلاقات بين الشعور والمخ؟

٥) كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء نفسها مثل الأنسجة والأعضاء ؟ .

٦) ما هي مصادر وطبيعة العلميات الميكانيكية الخفية التي تبني الجسم البسيط والمعقد في الوقت ذاته ألخ ...

وهناك أسئلة أخرى كثيرة منها ما ورد في الفصل الأول من الكتاب وفي الصفحة ١٨ منه بصورة خاصة ومنها ما لم يرد وهي كلها تشكل علامات استفهام يقف العلم الحديث أمامها عاجزاً حتى اليوم . ولعل أهم سؤال معجز يهمنا نحن البشر هو " كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الانسان وانحطاطه في المدينة العصرية؟" .

والمؤلف يرى أن حياتنا الصناعية الحديثة قد حققت تغييرات شديدة في بيئتنا المادية وفي أنواع اغذيتنا وفي ظروفنا العقلية والنفسية ". وقد انهارت بسبب ذلك كل الثقافات القديمة بما فيها المعتقدات الدينية بالغرب بخاصة .

المجهود أصبح أقل ... والمتعة أصبحت أوفر ... والتلهف على السلع تزايد بصورة تلفت النظر والرغبة في الثراء قد بدأت تتجاهل القيم الأخلاقية ... والاحساس بالظلم يزيد بصورة مخيفة.

أما التقدم الصحي فقد أصبح قادراً على انقاذ الضعفاء والأقوياء من المرض وبالتالي أصبح قادراً على تمديد حياة الانسان لفترة تتفاوت طولاً وقصراً وهي ظاهرة تحول دون أن يلعب قانون بقاء الأصلح دوره في صنع المجتمع الصحي القوي.

ويعلن المؤلف بعد عرض مطول للظروف العصرية الجديدة أن الحضارة اليوم " تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد انشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا [١] ".

ثم ينهي المؤلف مناقشته لهذا الموضوع فيؤكد في ص (٤١) وجوب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولما كان غريبا في واقع أمره عن العالم الذي أبدعه بفضل التقدم الاعتباطي للعلوم المادية فقد وجب أن يعاد النظر في خطة الدراسة القائمة.

ما هو علم الإنسان ؟

وينتقل المؤلف إلى الفصل الثاني ليقول لنا الحقائق التالية التي نوردها على صورة عناوين سريعة لا تفي بالغرض المطلوب.

يقول : ١ – " إن معلوماتنا عن الانسان كثيرة ولكنها مشوشة وغير متجانسة .

٢ – يجب أن نحقق توازناً في الجهود المبذولة لدراسة نواحي الانسان المختلفة . والإهتمام بالظواهر المعقدة تماماً كالاهتمام بالمظاهر البسيطة .

٣ – علم الإنسان يجب أن يجزأ إلى علوم فرعية كثيرة وهي في حاجة إلى فنون متعددة .

ومن الممكن إعطاء صورة عددية تقريبية لهذه الفنون التي منها : بالإضافة إلى الالكترونات والذرات والخلايا والأنسجة والأخلاط ووظائف الأعضاء علوم النفس والاجتماع والتربية والأخلاق والاقتصاد والدين وفلسفة الفنون الجميلة ألخ ...
كما يقرر في ص ٤٨ أن " علماء الفسيولوجيا في القرن التاسع عشر وتلاميذهم الذين لا يزالون يتسكعون حولنا ارتكبوا مثل هذا الخطأ حينما حاولوا أن يختزلوا الانسان اختزالاً تاماً إلى كيمياء مادية .".

ولا ينسى المؤلف تسليط الضوء على ظاهرة لافتة للنظر عند العلماء, إنه يقرر أن هؤلاء العلماء يختارون من بين الوقائع ما يساعدهم على إثبات فرضية لهم خاضعين في ذلك لاحساساتهم الخاصة وتكوينهم العلمي والفلسفي.

---

١) الإنسان ذلك المجهول ص : ٣٧

إنهم يهملون الموضوع الصعب أو الغامض أو يخفون جزءاً من الحقيقة في الجداول التي ينظمونها ذلك لأن العقل الإنساني بطبيعته يميل إلى الحلول الدقيقة الواضحة والمتميزة بالسهولة البالغة . والمثل على ذلك أن علماء وظائف الأعضاء العصريين هم أشد اهتماماً بالظاهرات الطبيعية – الكيميائية عند الحيوانات الحية منهم بالتركيبات الوظيفية المعقدة للأعضاء . يضاف إلى ما سبق أن كثيراً من العلماء المتخصصين في علم الانسان يتجاهلون الحقائق التي لا تتفق مع معتقداتهم العلمية أو الفلسفية كما هو شأن جان روستان الذي توفي منذ عام ونيف في فرنسا والذي كانت أبحاثه العلمية وطريقة اختياره للوقائع خاضعة لفلسفته المادية ولإلحاده بالحقيقة الإلهية.

إن جان روستان بالرغم من معرفته الواسعة وخبرته الكبيرة بأسرار علوم الحياة يبدو متحيزاً في تقرير الحقائق لأنه لا يقبل منها بوعي أو بغير وعي منه غير تلك التي تثبت نظرياته الفلسفية السائدة أو المسبقة التي تبناها لنفسه.

ومع ذلك فإن صاحب كتاب " الانسان ذلك المجهول " لا يلبث أن يقرر حقيقة علمية هامة في قوله ص ٥٤ " تبدو الوسيلة العلمية ، للنظرة الأولى ، غير قابلة للتطبيق على تحليل جميع وجوه نشاطنا ". يقصد بذلك أن الحقائق التي لا بعد لها في المكان والزمان لا يمكن أن تقاس بالأجهزة العلمية . فهذه الأجهزة مثلاً لا تستطيع أن تعيش الغرور والحقد والحب والجمال أو الأحلام والالهام ولكنها تسجل بسهولة بالغة الانعكاسات المادية الوظيفية لهذه الحالات النفسية على الأعضاء البشرية.

الدكتور أليكسيس كاريل يعتقد أن في وسع العلم أن يغزو مملكة النفس وميدان الوظائف الأخلاقية والأدبية الغامضة ولكن هذا الغزو يتم بطريقة غير مباشرة .

هكذا تتوفر للعلماء معرفة متكاملة بالإنسان وبالتالي يتحقق التوازن بين الجانبين المادي والروحي. والخلاصة أن صاحب الكتاب الدكتور كاريل يعلن في نهاية هذا الفصل المهم من كتابه (ص ٥٩) : " أن علم الانسان يستخدم جميع العلوم الأخرى. وهذا سبب من أسباب بطئه وصعوبته . ".

الجسم ووجوه النشاط الفسيولوجي

وفي فصل آخر يناقش الدكتور موضوع الجسم البشري من خلال نشاطه الوظيفي ، فيلاحظ حقيقة أساسية هي احساس الإنسان بأصالة شخصيته فيقول ص ٧٥ " اننا شاعرون بوجودنا ، وبأننا نملك نشاطاً خاصاً بنا ، أي بشخصيتنا ... ونعلم

أيضاً أننا نختلف عن الأفراد الأخرية ، ونعتقد أن ارادتنا حرة ، ونشعر بالسعادة أو التعاسة ... وهذه البديهيات تعين لكل منا الحقيقة النهائية .".

وفي فقرة أخرى من هذا الفصل يلاحظ وجود علاقة بين طبائع الإنسان وشكله وطريقة شد قامته بل وشكل وجهه ألخ ، ثم ينتقل إلى التفصيل فيبدأ بالحديث عن الجلد الذي يغطي السطح الخارجي للجسم فإذا به يسلط الضوء على وقائع مدهشة معجبة في مميزات الجلد وخصائصه لا يسعنا أن ننقلها إلى القارىء بسبب من ضخامة المادة وتنوعها . فإذا انتهى من التعرض للجلد أعلن حقيقة أخرى هي أن " جسمنا الداخلي لا يشبه تعاريف التشريح الكلاسيكي . فعلم التشريح في نظره هو أعجز ما يكون عن إعطاء صورة حقيقة للجسد البشري . ولا ينسى في أثناء العرض الدقيق والمكثف في الوقت نفسه لأسرار الجسم البشري ، أن يحدثنا عن الأخلاط التي تلعب دوراً بالغ الأهمية في جعل الحياة مستمرة وفي تحقيق التوازن المطلوب . ثم ينتقل بعد ذلك إلى جملة من الموضوعات يأتي في مقدمتها دور الغدد الجنسية ووظائفها التي تتجاوز حفظ الجنس . إنه يقرر أنها تزيد من قوة النشاط الفسيولوجي والعقلي والروحي ويعقب على هذا قائلاً في ص ١٠٨ " فليس هناك خصي أصبح فيلسوفاً عظيماً أو عالماً خطير الشأن أو حتى مجرماً عاتيا ، لأن للخصيتين والمبايض وظائف على أعظم جانب من الأهمية .".

وتبلغ دهشة الدكتور مبلغاً شديداً حين يتعرض لرأي القائلين بتساوي المرأة والرجل . إنه يؤكد أن أهمية الجنسين غير متساوية فيما يتعلق بتكاثر الجنس . " وأن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم والحمل أو من طريقة التعليم . إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ". ص ١٠٨ . أما الأعصاب وما فيها من عوالم غريبة ومدهشات وتعقيدات في كل جزء من أجزاء الجسم البشري وبصورة خاصة في الدماغ فقد تحدث عنها المؤلف حديثا مطولاً قرر فيه عجز العلم عن التعرف على الكثرة الساحقة من أسراره الخفية.

النشاط العقلي

وبعد أن يلخص الدكتور المؤلف قصة الجسم البشري في فصل يشغل ستين صفحة من الكتاب ينتقل إلى موضوع النشاط العقلي فيناقش فيه الموضوعات التالية :

١) النشاط العقلي وعلاقته بجميع وجوه النشاط الجسدي.

٢) قياس النشاط العقلي وشروط نموه والعقول المنطقية والسريعة الادراك والبصر المغناطيسي وتراسل الأفكار.

٣) النشاط الأدبي مع ما يرافقه من التغييرات الكيماوية.

٤) نشاط علم الجمال . الجمال وأهميته العملية.

٥) رأي في تجارب ما لا يدركه العقل.

٦) التناسق بين الاحساسات العقلية والأخلاقية والذوقية.

٧) العلاقة بين وظائف الأعضاء والنشاط الذهني.

٨) التفكير والعمل والصلاة والمعجزات.

٩) تأثير البيئة الاجتماعية على وجوه النشاط العقلي.

١٠) الأمراض العقلية والبيئة الاجتماعية .

والملاحظ أن هذه الموضوعات ليست مما يسهل تقديم صورة عنه إلى القارىء. إن كلا منها في حاجة إلى عدد من الصفحات في أقل تقدير. ولذلك فاننا نقصر عرضنا هنا على تقرير الحقيقة التالية التي قررها المؤلف في أثناء تعرضه لظاهرة الصلاة وتأثيرها في تحقيق تغيرات أساسية في بناء الجسم . وبعد أن يستعرض عدداً من هذه التغيرات التي حصلت بالفصل يقول ص ١٧٣ " إن لمثل هذه الحقائق مغزى عظيماً ... فانها تدل على حقيقة علاقات معينة ذات طبيعة مازالت غير معروفة ، بين العمليات السيكولوجية والعضوية ... وتبرهن على الأهمية الواضحة للنشاط الروحي الذي أهمل علماء الصحة والمربون ورجال الاجتماع دراسته إهمالا يكاد يكون تاماً ... هذه الدراسة تفتح للإنسان عالما جديدا .".

الزمن الداخلي

وهنا نبلغ أعقد الفصول في الكتاب وأكثرها إثارة للإهتمام . ذلك أنه يحاول فيه أن يدرس علاقة الزمن بالحياة البشرية . إنه يعرّف الزمن الداخلي في ص ١٨٩ كما يلي : " إن الزمن الداخلي هو تعبير عن تغييرات الجسم ونشاطه إبان الحياة ... وهو نابع عن ذلك التتابع المستمر لحالاتنا التركيبية والأخلاقية والفسيولوجية والعقلية التي تكون شخصيتنا " .

ثم يستشهد المؤلف بفقرة مما كتبه ويلز في كتابه " آلة الزمن " فيقول نقلا عنه " إن صورة الانسان في سن الثامنة والخامسة عشرة والسابعة عشرة والثالثة والعشرين وهلم جرا هي أجزاء ، أو بالأحرى صورة عن ثلاثة أبعاد لمخلوق ثابت غير قابل للتعديل ومكون من أربعة أبعاد . والبعد الرابع هنا هو الزمن .".

ولننقل رأياً آخر لبرغسون الفيلسوف الفرنسي استشهد به المؤلف أيضاً في ص ١٩٠ قال : " إن العمر ليس لحظة تأخذ مكان أخرى ... فالعمر هو التقدم المستمر للماضي الذي ينهش المستقبل ويتورم كلما تقدم ... وتكدس الماضي فوق الماضي يستمر دون تراخ . وفي الحقيقة أن الماضي يحفظ نفسه آليا ومن المحتمل أن يتبعنا بكليته في كل لحظة ... ولا شك في أننا نفكر بقسم صغير فقط من ماضينا . بيد أننا نرغب ونصمم ونعمل بكل ماضينا بما في ذلك الميل الأصلي لروحنا .".

ويعقب المؤلف على كلام برغسون فيقول في الصفحة نفسها : " إننا تاريخ ... وطول هذا التاريخ ، يعبر عن غنى حياتنا الداخلية أكثر مما يعبر عنه عدد سنوات حياتنا. ونحن نشعر بشكل غامض أننا لسنا اليوم مثلما كنا بالأمس . إذ يبدو كأن الأيام تطير بسرعة أكثر فأكثر. إلا أنه لا يوجد بين هذه التغييرات ما هو دقيق أو مستمر إلى درجة كافية بحيث يمكن قياسه .".

مما سبق يتبين لنا أن الانسان يحتفظ بوحدته لا في فترة معينة ثابتة بل عبر حياته كلها. إنه يحس بهذه الوحدة مهما تغير في مظهره الخارجي رغم إحساسه بوجود تطورات نفسية في أعماق ذاته.

هذه الوحدة المستمدة تتمثل في حركة أعضائه من ناحية وفي تتابع مشاعره وإحساساته من ناحية أخرى. وفي كلتا الحركتين تبرز حقيقة الزمن الداخلي عنده.

الوظائف التنسيقية

هل يعلم الكثيرون بأن العمر مشروط بوظائف التنسيق في داخل الجسم البشري ؟ وهل يعلمون أن التكيف مع الأحداث والوقائع في كل عضو من الأعضاء هو الذي يرمز إلى وجود الوظائف التنسيقية ؟ وهل يعلمون أن عملية التنسيق هذه يجب أن تواجه كل تغيير وكل طارىء بحيث تخلق المناعة في الجسم ضد كل الأخطار ؟

وهل يعلمون أخيراً بأن الحضارة الحديثة بما حققته من التغييرات العنيفة في نظام العيش في التنقل وطبيعة السكن والعمل والأغذية والتعليم وغيرها قد أحدثت عجزاً ظاهراً في قدرة الوظائف التنسيقية على النهوض بمسؤولياتها التي تحتفظ معها باستمرار الحياة ؟

كل هذه الأسئلة يجد القارىء اجابات واضحة عنها في الفصل السادس من الكتاب تحت عنوان " الوظائف التنسيقية .".

الفرد وإعادة صياغته

كيف نظر الدكتور الكسيس كاريل إلى الفرد؟ ما هي حقيقة الدور الذي يقوم به ؟ وما علاقته بالبيئة الإجتماعية أو الطبيعية ؟ هل نجح المجتمع الحديث في بناء هذا الفرد وإعداده الإعداد الذي يتيح له فرصة ممارسته لحياة قوية سعيدة ؟ وإذا لم ينجح فما الذي يجب أن يفعله العلم المعاصر ؟

يجيب المؤلف عن هذه التساؤلات بتقرير الوقائع والملاحظات التالية :

١) الانسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير.

٢) إنه عاجز عن تكييف نفسه مع البيئة التي خلقتها التكنولوجيا.

٣) مصيره هو الانحلال فيما استمرت هذه البيئة بظروفها القائمة.

٤) نحن مسؤولون عن هذا المصير لا الميكانيكا ولا العلم.

٥) الإنسان المعاصر نقض القوانين الطبيعية فاستحق العقوبة الحتمية.

٦) إن مبادىء الدين العلمي والآداب الصناعية سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية.

٧) الحضارة آخذة في الانهيار لأن علوم الجماد قادتنا إلى ميادين ليست لنا ، فاصبح الفرد بها ضيقاً متخصصاً فاجراً غبياً غير قادر على التحكم في نفسه وفي مؤسساته.

٨) هناك أمل في بعث قوة الأجداد وجرأتهم في إرادة الإنسان العصري ألخ ...

ويتساءل المؤلف بعد ذلك قائلاً : ترى هل ما يزال هذا الانسان قادراً على تحقيق مثل هذا البعث؟ ويجيب عن هذا السؤال في فصل أخير وطويل بعنوان " إعادة صياغة الانسان " . خلاصته المطالب التالية التي يعتبرها المؤلف ضرورية التحقيق . إنها :

١) ضرورة تغيير مظهرنا العقلي بحيث نتخلص من تفوق الكم على النوع والمادة على الروح .

٢) اعداد نوع من العلماء قادر على استيعاب أحدث النتائج التي تم الحصول عليها في كل العلوم الانسانية.

٣) انشاء معاهد جديدة قادرة على تحرير الإنسان من مذاهب الحضارة الصناعية والمبادىء التي يرتكز عليها كيان المجتمع العصري.

٤) يجب تكوين ثقافة بغير راحة وجمال بغير ترف والآت بغير مصانع مستعبدة للإنسان وعلم بغير عبادة للمادة ... وهذه كلها تعيد إلى الانسان ذكاءه واحساسه الأدبي وحيويته.

ويحاول المؤلف بعد أن يكشف عن مواطن الضعف في مختلف فئات المجتمع وينتهي إلى تقرير الصورة التي يتخيلها لإنسان المستقبل القادر على تحمل المتاعب والارتفاع إلى مستوى المسؤولية ومواجهة الهزيمة والنصر يقول في ص ٣٤٤ " فالعدو فوق أرض خشنة ، وتسلق الجبال ، والمصارعة ، والسباحة والعمل في الغابات والحقول ، والتعرض لتقلبات الطقس ، والمسؤولية الأدبية المبكرة ، وقسوة الحياة بصفة عامة تؤدي إلى تناسق العضلات والعظام والأعضاء والشعور .".

وبعد أن يقرر سلسلة من الوقائع والملاحظات يعلن في الفقرة الأخيرة من الصفحة الأخيرة ما يلي :

" لأول مرة في تاريخ الإنسانية ، تستطيع حضارة متداعية أن تميز أسباب انحلالها ، ولأول مرة تجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الهائلة تحت تصرفها ... ترى هل ستستخدم هذه المعرفة وتلك القوة ؟ إنها أملنا الوحيد في القرار من المصير المشترك لجميع حضارات الماضي العظمى ... إن مصيرنا بين أيدينا ... فيجب أن نسير قدما في الطريق الجديد .".

هل نجح المؤلف في التشخيص ووصف الدواء ؟

الواقع أن الحقائق التي سجلها المؤلف في كتابه " الإنسان ذلك المجهول "، هي من الأصالة والقوة بحيث أنها تفرض علينا إعادة النظر فيها وتدبرما فيها من الوضوح والواقعية . ولكن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر بعض الملاحظات الخاصة بمنهجه في عرض الموضوع ومناقشته .

١) أعلن المؤلف أن المنهج العلمي حتى اليوم قد فشل في فهم الإنسان وبالتالي في إنقاذه .

٢) الإقتراحات التي يقدمها لتحرير الإنسان من المخاطر نابعة من المنهج العلمي نفسه.

٣) إنه بالرغم من اهتمامه بالجوانب الأخلاقية والأدبية واعتباره إياها ذات أهمية أساسية يجهل المصدر الأساسي للوعي الأخلاقي والأدبي الذي لم يعترف به العلم الغربي وهو الدين .

٤) إهمال الكسيس كاريل للجانب الديني نابع من فشل الكنيسة الغربية في مواجهة أخلاقيات الحضارة الجديدة واستيعاب مشكلاتها الانسانية .

٥) إننا بالرغم من موافقتنا على جوانب التشخيص في كتابه واستفادتنا البالغة من الوقائع العلمية التي أوردها ما نزال نؤمن بأن الحس الأخلاقي الذي يحقق بنموه التوازن في الحياة الإنسانية مع النمو العلمي المادي في حاجة إلى الاسلام الذي هو وحده من دون كل الأديان قد اعتبر حركة الحياة في ضوء قوانينها الطبيعية الميدان الأساسي لمسيرة الوعي الديني . وقد أعلن عن جوهره هذا حين رفض الكهانة وجعل من تشريعاته وآدابه وأخلاقياته توكيداً لقوانين الطبيعة والحياة .